ترجع إلى القاهرة يوم الجمعة ، الذى هو قبل السبت الذى سافرت فيه ... معلوم ! . . الأمر واضح جداً ! . . فيحسب المدرس أنى أسخر منه ، ويعاقبنى بالحبس ساعة ، آخر النهار . . هذا يا ستى ما كان مدرسنا يعلمنا . . لقد ضاع علينا والله ما أنفقناه فى التعلم . . والآن بعد أن استرحنا من المدارس والمدرسين الخرفين نركب هذه الباخرة الجميلة ونحن نعتقد أن الدنيا بخير ، وأن العقول لم تطر من الرؤوس وإذا بهم يقولون لنا ردوا عقارب الساعات لأنا رجعنا ساعة ؟ ؟ والذى يدهشنى هو أن تصدقيهم

فتقول فتاتى : « ولكن هذا صحيح »

فأصيح بها – برغمى – : « كيف تقولين هذا الكلام ؟ . . هل تريدين منى أن أقول إن الساعة الرابعة حين تكون الخامسة ؟ . إنك تكلفيننى شططاً »

فتقول : « لقد كسبنا ساعة »

فأقول : « أرجوك ! . أرجوك ! . »

فتقول : « صحيح والله »

فأقول : « يابنت الحلال كيف يمكن أن نكون قد كسبنا هذه الساعة وهى قد ولت ؟ . ثم إنى لم أكن معك فيها ، لأنى كنت نائماً فالخسارة مضاعفة »

فتضحك وتقول : « كسبناها لأنا استرجعناها »

فأقول : « إيه ؟ استرجعنا الساعة التى ولت ؟ . مدهش ! »

فتقول : « ألا تصدق ؟ »

فأقول : « يا حبيبتى ، يا روحى ، يا عقلى . . أرجوك ! . ألف راء جيم واو الخ الخ . »

فتضحك فأقول : اسمعى إنى لا أحب أن يبق هذا الخلاف بيننا ، وأنا من أجل عينيك النجلاوين أفعل ما تريدين – لا عن اقتناع ، بل ارضاء لك – وأنا مستعد أن أقول إننا رجعنا إلى العام الماضى . . والله فكرة ! تعالى نرجع طفلين ونلعب . »

فتذهب تعدو ضاحكة وأعدو وراءها حتى أدركها .

ابراهيم عبد القادر المازنى

خاتمة المأساة الأندلسية

الصراع الأخير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بينما كانت هـذه الحوادث والمعارك الدموية تضطرم فى هضاب الأندلس وسهولها وتحمل إليها أعلام الخراب والموت ، إذ وقع فى المعسكر الموريسكى حادث خطير هو مصرع محمد بن أمية ؛ وكان مصرعه نتيجة المؤامرة والخيانة ؛ وكانت عوامل الخلاف والحسد تحيط هذا العرش بسياج من الأهواء الخطرة ، وكان محمد بن أمية يثير بين مواطنيه بظرفه وفروسته ورقيق شمائله كثيرا من العطف ، ولكنه كان يثير بصرامته وبطشه الحقد فى نفوس نفر من ضباطه ؛ وتقص علينا الرواية القشتالية سيرة مقتله ، فتقول إنه كان ثمة ضابط من هؤلاء يدعى ديجو الجوازيل له عشيقة حسناء تسمى « زهره » فانتزعها محمد منه قسرا ، فحقد عليه ، وسعى لإهلاكه بمعاونة خليلته ، فزور على لسانه خطابا إلى القائد العام « ابن عبو » يحرضه على التخلص من المرتزقة الترك ، وكانت ثمة منهم فرقة فى المعسكر الموريسكى ، فعلم الترك بأمر الخطاب ، واقتحموا المعسكر إلى مقر محمد بن أمية . وقتلوه بالرغم من احتجاجه وتوكيد براءته ؛ واستقبل الجند الحادث بالسكون ؛ وفى الحال اختار الزعماء ملكا جديدا هو « ابن عبو » فتسمى بمولاى عبد الله محمد ، وأعلن ملكا على الأندلس بنفس الاحتفال المؤثر الذى وصفناه . وكان مولاى عبد الله أكثر فطنة وروية وتدبرا ، فحمل الجميع على احترامه ؛ واشتغل مدى حين بتنظيم الجيش واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب ، واستطاع أن يجمع حوله جيشا مدربا قوامه زهاء عشرة آلاف بين مجاهد ومرتزق ومغامر

وفى أواخر اكتوبر سنة ١٥٦٩ سار مولاى عبد الله

بجيشه صوب « أورجبه » وهى مفتاح غرناطه واستولى عليها بعد حصار قصير ، فذاعت شهرته ، وهرع الموريسكيون فى شرق البشرات إلى إعلان طاعته ، وامتدت سلطته جنوباً حتى بسائط رندة ومالقة ؛ وكثرت غارات الموريسكيين على فحص غرناطة (لافيجا) ، وقد كان قبل سقوطها ميدان المعارك الفاصلة بين المسلمين والنصارى . وكان فيليب الثانى حينما رأى استفحال الثورة الموريسكية وعجز القادة المحليين عن قمعها ؛ قد عين أخاه الدون جون (خوان) قائداعاما لولاية غرناطة ؛ ولما رأى الدون جون اشتداد ساعد الموريسكيين ، اعتزم أن يسير لمحاربتهم بنفسه ، فخرج فى أواخر ديسمبر على رأس جيشه ، وسار صوب « وادى آش » ، وحاصر بلدة « جاليرا » وهى من أمنع مواقع الموريسكيين ، وكان يدافع عنها زهاء ثلاثة آلاف موريسكى منهم فرقة تركية ، فهاجمها الاسبان عدة مرات ، وصوبوا عليها نار المدافع بشدة ، فسقطت فى أيديهم بعد مواقع هائلة أبدى فيها الموريسكيون والنساء الموريسكيات أعظم ضروب البسالة ، وقتل فيها عدة من أكابر الاسبان وضباطهم ، ودخلها الاسبان دخول الضوارى المفترسة وقتلوا كل من فيها ، ولم يفروا النساء والأطفال ، وكانت مذبحة رائعة ، (فبراير سنة ١٥٧٠) وتوغل الدون جون بعد ذلك فى شعب الجبال حتى سيدون الواقعة على مقربة من بسطة ، وكانت هنالك قوة أخرى من الموريسكيين بقيادة زعيم يدعى « الحبقى » ، تبلغ بضعة آلاف ، ففاجأت الاسبان فى سيدون ومزقت بعض سراياهم ، وأوقعت الرعب والخلل فى صفوفهم ، وقتل منهم عدة كبيرة ، ولم يستطع الدون جون أن يعيد النظام إلا بصعوبة ، فجمع شتات جيشه ، وطارد الموريسكيين ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى اندرش فى مايو سنة ١٥٧٠

وهنا رأت الحكومة الاسبانية أن تجنح إلى شيء من اللين خشية من عواقب هذا النضال الرائع ، فبعث الدون جون رسله إلى الزعيم الحبقى يفاتحه فى أمر الصلح ، وصدر أمر ملكى بالوعد بالعفو التام عن جميع الموريسكيين الذين يقدمون خضوعهم فى ظرف عشرين يوماً من إعلانه ، ولهم أن يقدموا ظلاماتهم فتبحث بعناية ، وكل من رفض الخضوع ماعدا النساء والأطفال دون الرابعة عشرة ، قضى عليه بالموت ؛ فلم يصغ إلى النداء أحد . ذلك أن الموريسكيين أيقنوا نهائياً بأن أسبانيا النصرانية لا عهد لها ولا ذمام وإنها غير أهل للوفاء ، فعاد الدون جون إلى استئناف القتال والمطاردة وانقض الاسبان على الموريسكيين محاربين ومسالمين يمعنون فيهم قتلا وأسرا ؛ وسارت قوة بقيادة دوق سيزا إلى شمال البشرات واشتبكت مع قوات مولاى عبد الله فى عدة معارك غير حاسمة وسارت مفاوضات الصلح فى نفس الوقت عن طريق الحبقى ؛ وكان مولاى عبد الله قد رأى تجهم الموقف ورأى أتباعه ومواطنيه يسقطون من حوله تباعاً ، والقوة الغاشمة تجتاح فى طريقها كل شيء ، فمال إلى الصلح والمسالمة ، واستخلاص ما يمكن استخلاصه من براثن القوة القاهرة ؛ واتفق المفاوضون على أن يتقدم الحبقى إلى الدون جون باعلان خضوعه وطلب العفو لمواطنيه ، فيصدر العفو العام عن الموريسكيين ، وتكفل الحكومة الاسبانية حمايتها لهم أينما ارتأت إقامتهم ، وفى ذات مساء سار الحبقى فى سرية من فرسانه إلى معسكر الدون فى اندرش وقدم له الخضوع وحصل على العفو المنشود

ولكن هذا الصلح لم يرض الموريسكيين ، ولم يرض بالأخص مولاى عبد الله وباقى الزعماء ، ذلك لأنهم لمحوا فيه نية إسبانيا النصرانية فى نفيهم ونزعهم عن أوطانهم ؛ ففيم كانت الثورة إذاً ، وفيم كان النضال ؟ لقد ثار الموريسكيون لأن اسبانيا أرادت أن تنزعهم لغتهم وتقاليدهم ، فكيف بها إذ تعتزم أن تنزعهم ذلك الوطن العزيز الذى نشأوا فى ظلاله الفيحاء ، والذى يضم تاريخهم وكل مجدهم وذكرياتهم ؟ أنكر الموريسكيون ذلك الصلح المجحف ، وارتاب مولاى عبد الله فى موقف الحبقى إذ رآه يروج لهذا الصلح بكل قواه ، ويدعو إلى الخضوع والطاعة للعدو ، فاستقدمه إلى معسكره بالحيلة ؛ وهنالك أعدم سراً

ووقف الدون جوان على ذلك بعد أسابيع من الانتظار والتريث ، وبعث رسوله إلى مولاى عبد الله ، فأعلن اليه أنه يترك الموريسكيين أحراراً فى تصرفهم ، بيد أنه يأبى الخضوع

مابقى فيه رمق يلبض ، وأنه يؤثر أن يموت مسلماً مخلصاً لدينه ووطنه على أن يحصل على ملك اسبانيا بأسره ؛ والظاهر أن مولاى عبد الله كانت قد وصلته يومئذ أمداد من المغرب شدت أزره وقوت أمله ؛ وعادت الثورة إلى اضطرامها حول رندة ، وأرسل مولاى عبد الله أخاه الغالب ، ليقود الثوار فى تلك الأنحاء ؛ وثارت الحكومة الاسبانية لهذا التحدى ، واعتزمت سحق الثوار بما ملكت ؛ فسار الدون جوان فى قواته إلى وادى آش ، وسار جيش آخر من غرناطة بقيادة دوق ركيصانص إلى شمال البشرات ، وسار جيش ثالث إلى بسائط رندة ، واجتاح الاسبان فى طريقهم كل شىء وامعنت فى التقتيل والتخريب ، وعبثاً حاولت السرايا الموريسكية أن أن تقف فى وجه هذا السيل فمزقت تباعا ، وهدم الاسبان الضياع والقرى والمعاقل ، وأتلفت الاحراش والحقول حتى لا يبقى للثائرين مثوى أو مصدر للقوت ، وأخذت دعائم الثورة تنهار بسرعة وفر كثير من الموريسكيين إلى إخوانهم فى أفريقية ، ولم يبق أمام الاسبان سوى مولاى عبد الله وجيشه الصغير ؛ بيد أن مولاى عبد الله لبث معتصما بأعماق الجبال يحاذر الظهور أمام هذا السيل الجارف

وفى ٢٨ أكتوبر سنة ١٥٧٠ أصدر فيليب الثانى قراراً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة إلى داخل البلاد ، ومصادرة أملاكهم العقارية وترك أملاكهم المنقولة يتصرفون فيها ؛ ونفذ القرار الجديد بمنتهى الصرامة والتحوط ، وجمع الموريسكيون فى الكنائس أكداساً ، يحيط بهم الجند فى كل مكان ، ونزعوا من أوطانهم وربوعهم العزيزة ، وشتتوا داخل الأقاليم الاسبانية ، وانهار بذلك المجتمع الموريسكى فى مملكة غرناطة

ولم يبق إلا أن يسحق مولاى عبد الله وجيشه الصغير ؛ وكان هذا الأمير المنكود يرى قواده وموارده تذوب بسرعة وقد انهار كل أمل فى النصر أو السلم الشريف ؛ بيد أنه لبث مختفياً فى أغوار الجبال مع شرذمة من جنده المخلصين ، وفى مارس سنة ١٥٧١ كشف بعض الأسرى سر مخبئه للأسبان فأوفدوا رسلهم إلى معسكره فى بعض المغائر وهناك استطاعوا إغراء ضابط مغربى من خاصته يدعى « الزنيش » أغداقوا له المنح والوعود إذا استطاع أن يسلمهم مولاى عبد الله حيا أو ميتاً وزودوه بالعفو الشامل ؛ فدبر الضابط الخائن خطة لاغتيال سيده ؛ وفى ذات يوم فاجأه مع شرذمة من أصحابه فقاوم مولاى عبد الله ما استطاع ولكنه سقط أخيراً مثخناً بجراحه فحمل الخونة جثته إلى غرناطة ؛ وهناك رتب الاسبان موكباً أركبت فيه الجثة مسندة إلى بغل كأنما هى إنسان حى ، ثم حملت إلى النطع وأجرى فيها حكم الاعدام ، فقطع رأسها ثم جرت فى شوارع غرناطة مبالغة فى التمثيل والنكال ، وبعد ذلك أحرقت فى الميدان الكبير

— ٥ —

وهكذا انهارت الثورة الموريسكية وسحقت وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد وقضت المشانق والمحارق والمحن المروعة على كل نزعة إلى الخروج والنضال ، وهبت ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ، ولا تقوم لهم قائمة ، فى ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى

على أن اسبانيا النصرانية لم تطمئن مع ذلك إلى وجود هذا الشعب المستكين الأعزل الذى ما زال رغم ضعفه وذلته يملأ جنباتها بفنونه ونشاطه المنتج ؛ وكانت الكنيسة ما زالت تنفث إلى الدولة تحريضها البغيض على مجتمع لم تطمئن إلى صحة إيمانه ، وكانت الدولة ذاتها تلتمس المعاذير لاضطهاد هذا المجتمع ومطاردته ، فهى تخشى من أن يعود إلى الثورة ، وهى تخشى من صلاته المستمرة مع مسلمى إفريقية ، وكان التنصر المطبق قد غم الموريسكيين وغدا أبناء قريش ومضر بحكم القوة والتطور نصارى وقشتاليين ، يشهدون القداس ، ويتكلمون القشتالية ؛ غير أنهم لبثوا مع ذلك فى معزل تلفظهم إسبانيا النصرانية وتحيطهم بريبها وبغضها ؛ وكانت ثمة منهم جموع كبيرة فى بلنسية ومرسية ؛ ففى عهد فيليب الثالث اتخذت إسبانيا النصرانية خطوتها الحاسمة ، وأصدرت قرارها الشهير فى صحف الاضطهاد ، بنفى الموريسكيين أو العرب المتنصرين من إسبانيا ، وإخراجهم